النقد العربي بين حقيقتي الإبداع والإتباع

أ/بدرة فرخي
جامعة جيجل

هذه الكلمات لا يمكن اعتبارها مقدمة لأن ذلك يتطلب اتخاذ موقف تقييمي من الخطابات التي أنتجتها على فترات مختلفة وربما متباعدة .ولكن يمكنني فقط أن أسرد حكايتي مع العالم التخيلي الذي هو الكتابة وما رافق ذلك من إحباطات وملذات 1.
وبشكل يكاد يوازي هذه الملفوظات أفسح لنفسي فضاء كلمات لا يمكنني اعتبارها مقدمة لمتن البحث بقدر ما فضلت أن تكون إرهاصا شكليا لأبعاد ضمنية متعددة، أتمناها أن تحظى بجو أكاديمي ثقافي يرتقي بها إلى ما أكون قد تجاوزته سهوا أو قصرا في طبيعة التعمق وأسسه.
ولكنني وفي كل المقامات أحاول كشف القدرة على مواجهة الواقع اللغوي الذي عادة ما ينهل سبل التقعيد التلقيني والتشبث بأصول لسانية جاهزة ظن الكثير منا، توهما، أنها قد أحاطت بكل الإشكالات.
تمثل النظرية النقدية محورا أساسيا في المواجهة اللغوية ، وهي مجال نقاش وصدام متواصلين يستدعي الإدراك الدقيق لها امتلاك معرفة لا تشمل الحجج الأساسية لوجهة نظر خاصة و وجهة نظر فحسب، بل لمواقف بديلة على خلاف معها علانية أو ضمنا.
ولطالما مثل النص بؤرة الحديث النقدي بما تفرد به من خصائص لغوية فنية 2.فالفن تفكير في صور وهي المقولة التي يرددها حتى طلبة المدارس العليا،تظل رغم ذلك نقطة الانطلاق بالنسبة إلى الفقيه اللغوي الواسع المعرفة، الذي يشرع في لم شمل ضرب النظرية الأدبية المنظمة3.

يظهر العمل الفني في التحليل النهائي مجموعة فعلية من القيم المسرفة في الجمالية التي تجد نموها وخصوبتها في ضوء القراءات النقدية المتكررة. فالنقد الأدبي تأكيد للنص وإلغاء له في الوقت نفسه. وهو_ من جهة تعليمية_ وصف لتلك الوحدة الكاملة وتقييم لها في الوقت نفسه و التي يشكلها العمل الأدبي أو يخفق في تشكيلها، وعلاقة الأجزاء المختلفة أحدها بالآخر في إقامة تلك الوحدة.
وقد أبدى النقد الأدبي قدرا من الألم لما يقوم به وللوجهة التي يقصدها.ولعل لكل جيل غروره الذي يجعله يظن أنه على عتبة عصر جديد يسلك سلوكا تمحي به التأملات اللغوية السابقة وتطلعاتها.وتتبين هواجس هده الشكوك في استحضار نقدي بسيط لطبيعة العملية النقدية في الجامعة، بهدف خلق محاورة متواضعة تقوم على تتبع العينات النقدية الجزائرية تتبعا يهدف بدوره إلى إثارة الشك في الادعاء غير المؤسس الذي يستند إليه أولئك الدين يتبنون مصطلح الإبداعية رؤية وشكلا.
يعرف النقد بأنه القراءة الفعالة للنص ،وهو إبداع على إبداع الغرض منه استنطاق خلفية النص وأبعادها التأويلية استنطاقا لغويا فنيا مؤسسا. ومن مهامه نسج شبكة محكمة من التقدير والتذوق والتقييم دون أن يقحم نفسه في خبايا العمل الادبي4.و من يقر مثل هدا الكلام يكون قد أقحم نفسه في النص من حيث لا يدري لأنه لولا معرفتنا لخبايا النص لما تمكنا من امتلاكه لحظة تبنت نسيجه تقنياتنا النقدية ليتفاعل معها بصورة الانتماء الخطابي والانتساب التأويلي، مشكلا ارتقاء على مستوى التأليف، خاصة في البحث النقدي الذي كان في هده الأونة يعد نوعا من الفنون الأدبية.
وقد تميز بعض النقاد، ليس فقط أولئك الدين اشتهروا بأسلوبهم المتألق مثل وايلد،ياتس،سانتاينا،تشاسترتن بسمة واضحة في المحافظة على التميز الأسلوبي في قراءاتهم النقدية.5 تلك القراءات التي بنيت على قصدية القراءة التي لا تبني العمل من خلال إدراكها إياه تدريجيا بل تكشف عن وجوده في الحال. فالقراءة إذن لا تعني كتابة الكتاب من جديد بل تجعل الكتاب يكتب نفسه أو يكتب،في هده المرة دون وساطة المؤلف ،دون وجود شخص يكتبه 6. و النص الذي ينح نحو إنتاج نفسه من جديد إنتاجا يتكرر تكرارا متباينا من ناقد إلى آخر حسب المنطلقات المتبناة والأهداف المنشودة: من منهج الدراسة ،رصد ملامح لسانية أو أسلوبية عامة تتراوح بين الغايات التعليمية والبلاغية الأكاديمية.
والنقد الأدبي تأكيد لوجود النص الذي يتحول إلى وحدة ممزقة يتملكها تناقض أولي رائع مشكلا القوة الحيوية للعملية النقدية7.
تأتلف الخطوط العريضة لهد المقال ،على اختلافها، لرسم ملامح من صورة النقد العربي، ورصد أوجه مظاهر الإبداع في فضاء الجامعة الجزائرية.
وتسهم فيما أرجو في الاستجابة لآفاق الأسئلة التالية:
ماهي طبيعة الإبداع النقدي في الجامعة الجزائرية؟
أحقا هناك عمل بناء اسمه العمل الإبداعي على مستوى النص الواحد؟.
كيف يمكن أن تتبين هده المساءلة تبينا موضوعيا؟ .

ماهو الحكم المرجح في ضوء تقرير حقيقة الإبداع أو نفيها ؟.
كيف يمكن أن نصنع للنقد العربي إطارا فنيا إبداعيا يخرجه من القوقعة والاستهلاك الاتباعية إلى مفهوم التطور التغيري والتجديد الواعي المحفز إلى الصورة الإبداعية؟.

تجمع جل الدراسات والبحوث التي تناولت المادة النقدية الجزائرية قبل سنة 1961على أن لا جدوى للبحث عن خطاب نقدي جزائري يستحق الدراسة والتمحيص ضمن أطر الخطاب النقدي وحدوده المنهجية والاصطلاحية،وكل ما هناك هو مجرد محاولات قليلة وفقيرة،متناثرة في كتب الصحف والمجلات ،كان يدبجها بعض الكتاب أمثال:رمضان حمود ومحمد السعيد الزاهري ومحمد البشير الإبراهيمي وابن باديس وحمزة بوكوشة وأحمد بن ذياب وعبد الوهاب بن منصور وأحمد رضا حوحو وغيرهم من الأدباء والمشايخ الدين لم نعرف واحدا منهم جعل النقد شغله الشاغل8.
والحقيقة أن النقد الجزائري قد عرف جل مناهج النقد برصيد متباين،فقد ساد النقد التاريخي خلال الستينات وكان لعبد الملك مرتاض باع متين في النقد التاريخي الذي استغرق مؤلفاته النقدية الأولى،ولاسيما بحوثه الجامعية،لعل أشهرها وأكبرها تمثيلا له: فنون النثر الأدبي في الجزائر، وفن المقامات في الأدب العربي، وكذا نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر9.كما ظهر النقد الأدبي في ضوء المنهج الاجتماعي في السبعينات واستغرق ردحا من الزمن في شتى أصقاع العالم وأفرز جملة من المصطلحات الجديدة ،لازال بعضها يستعمل اليوم (رؤية العالم،الالتزام ،الانعكاس،...).وقد ظهرت البدور الأولى لهدا المنهج في النقد العربي الحديث في كتابات طه حسين وأحمد أنين وسلامة موسى 10.كما لوحظت مثل هده الاهتمامات في الجزائر وبدأ التعمق حول علاقة الأدب بالأديولوجيا على النحو الذي فعله عمار بلحسن ويفعله الأعرج واسيني في جل دراسته.
عرف النقد الأدبي في ضوء المنهج السابق عدة أشكال حملت شعار تمثيله تمثيلا جسده عبد الله ركيبي الدي جعل من دراسته اختصارا لجملة السياقات الاجتماعية والثقافية والفكرية والدينية، التي أثرت في الحياة الأدبية قبل أن يرهن بحثه لتتبع تجلياتها في النصوص المختلفة11.كم نستشهد في هدا المقام بما قدمه محمد مصايف الذي خص النقد ومناهجه بقسم كبير من كتابه دراسات في النقد والأدبي. وإذا عدنا إلى الخطاب النقدي الجزائري فإنه يعسر البحث عن موقع للنفسانية منه،وتأويله_فيما نرى هو قلة رصيد نقادنا من المفاهيم السيكولوجية،وإلى أن الجامعة الجزائرية لم تعتمد مقياس علم النفس الأدبي إلا في وقت متأخر،فضلا عن أنه يوكل إلى أساتذة لا صلة لهم بعلم النفس عموما12.
تتبنى صورة النقد لأدبي في ضوء المناهج اللسانية الحديثة تطلعات أخرى لمعالجة النص معالجة لغوية تبحث في طبيعة الأنظمة العلائقية المؤطرة بمبدأ التجاوز الركني إلى مايعرف بمهوم التعالق النصي البناء والدي يفضي إلى قراءة النص نفسه على نحو مختلف.هي رؤية وجدناها تنشد تقنيات في التحليل قصد تجاوز المعطيات القديمة وتطوير حقيقة الفضاء

النقدي ،الذي يمثل عملية أدبية تعنى بإنتاج النصوص ذات الطبيعة الأدبية. وتتناول النصوص الإبداعية كموضوع للدرس،وتختلف كل عملية نقدية عن العمليات الأخرى من خلال المنهج المستخدم والأداة الموظفة لهذا الغرض13.كما تختلف عنها بزاوية التناول والقضايا التي تركز عليها والمستويات التي تهتم بقراءتها ومن هنا يختلف النص الأدبي عن النص النقدي فلكل منهما طريقة وموضع رغم طموح النص النقدي إلى استيعاب النص الإبداعي وتجاوزه بواسطة طرائق تناوله14.وفي ضوء هده الاستنارة البسيطة يسعى الناقد الجزائري إلى تقديم معايشة فعلية للعملية الإبداعية ولصيرورة اللسانية المنهجية . ولا يختلف اثنان في خصوص ريادة عبد الملك مرتاض للبنيوية ومابعد البنيوية في الخطاب النقدي الجزائري 15.

كما أسهم عبد الحميد بورايو في إثراء حقل الاستفادة من المناهج اللسانية وعلى غرار عامة البنيويين يقدم مادته النقدية في شكل معادلات جبرية ورسوم هندسية من شأنها أن توضح ما انتهى إليه من نتائج16.

إن واقع النقد الجزائري يعطي الباحث مجالا للتأويل البناء بين حقيقة وجود النقد بوصفه إبداعافاعلا على مستوى القراءة وبين النقد بوصفه هدما قصديا لمرجعية النص الأصلية.إن هدا التأكيد يتفق والنهج النقدي عند بوليه وريجارد، اللذين لا يهدفان إلى إصدار الحكم على القيمة الإدراكية للنصوص التي هي قيد الدراسة ،بل إنها تبتغي تبني منظور الوعي الذي يدخل ضمن النتاج :ينبغي أن لا يبحث النقد عن موضوع...فالأمر الدي ينبغي الوصول إليه هو الفاعل ،أي نوع من الفعالية العقلية يستطيع المرء فهمها بأن يضع نفسه في محلها وفي منظورها،وباختصار بان نجعلها تقوم في داخلنا بالدور الذي تقوم به على أنها فاعلة17.

ليس في مقدور التطورات اللسانية الحديثة أن تستجيب للطبيعة اللغوية العربية استجابة آلية لا تخضع للتكيف على مستوى المنطلق العربي وتطلعاته.ولن تلبي حاجات القراءة المثاليةوهي تتجاهل المادة اللسانية تنظيرا وتطبيقا فالدرس الحديث إنما ينبني على التشبع المنهجي الواعي لأصول الخطاب الجزائري العلاماتية في ضوء الملكة التبليغية المؤسسة للبعد التشكيلي للدليل ،بوصفه شفرة التواصل الجامعي في إطار التأسيس الصوري القيم لفكرة الإبداع.

يقتضي النشاط الفعلي للممارسة النقدية تبني منهجا يكتسي أهميته من حيث كونه تأكيد لموقف ودفاع عنه في الوقت نفسه.وهو ما تمثلته الساحة النقدية الجزائرية تمثلا منهجيا غربيا ،ناقلة بدلك مرجعيته الإيديولوجية الحاملة بدورها للرؤية اللسانية التي تمحي بها القدرة النقدية العربية الفاعلة. إن هدا التبني للمناهج الغربية هوقمع لوجود النص عينه من منظومته الثقافية التي أنتجته ، أضف إلى دلك عدم التمكن من استيعاب تطلعات النص استعابا لسانيا دقيقا عادة مايؤول بعدم تحديد المفاهيم والتقنيات الإجرائية والتحكم فيها بدقة أثناء تطبيقها على النصوص الإبداعية عند الناقد أو القارئ18.

تتوضح الصورة الأولى للنقد الجزائري في فضاء الجامعة لكونه النموذج الحي لتتبع سيرورة العملية النقدية وصيرورتها بشكل

أدق.وللأسف الشديد فالباحث عن صورتها لايجد لها من صورة عربية خالصة. وهو الوضع الذي تبرره عوامل عدة ندكر منها: البرنامج الوزاري الجاهز الذي ينبني على أسس غير موضوعية وتكاد تكون مادته المقدمة استهلاكا مملا لإرهاصات المناهج الغربية ليبقى حل الإشكال على علاقة بمعرفة منطلقات المسؤولين وتطلعاتهم .كما يلعب الأستاذ الباحث دورا مهما في توسيع دائرة الإبداع وتقليصها وتقويمها من جهة أخرى، فعادة ما ينهج أساتذتنا الأفاضل_ سامحهم الله_ دور المقرر الكلاسيكي المجيب على قدر السؤال بأن يضع النقطة أين يختم الملفوظ توهما منه برسم مسلك أكاديمي دقيق يؤسس الطالب القارئ.
ولا يهمنا في واقع الحال الإبداعي أي نوع من القيود بقدر ما يهمنا تشكيل **الدرس اللغز** الذي يعلم المتلقي كيفية فك لغزه من ذات ثقافته، من مرجعيته وليس من الحضور الجاهز لنظريات تبناها الغربيون قراءة واعية تؤلف أنماط تحليلية تشكل بنى لغوية مكافئة لممارساتهم اللغوية بمختلف الأيديولوجيات.
وهناتضيع فرصة اللقاء بين الناقد _مرسل النص ومستقبله:القارئ ويصبح النص نسيجا غريبا عن حركية الثقافة، وبالتالي يعجز عن القيام بوظيفته الأساسية التي هي إجلاء الدلالات الغامضة والمستغلقة ويصبح هو الآخر في حاجة إلى توضيح أكثر19.
إن النقد كما حدده رولان بارت هو خطاب على خطاب ،وهو قراءة ثانية تؤسس على لغة واصفة Méta_langage
كما انه عملية مكملة للجزء الأول من الإبداع تتأسس على ماهو موجود من النصوص لتوضح الصورة الحداثية.
شيئ جميل أن نستكشف القدرة اللسانية عند الغربيين، والأجمل منه أن نتقن استعمالها اتقانا براغماتيا نقدم من خلاله نظرية لغوية عربية متكيفة مع حقائق اللسان الغربي .
ولكن الإشكالات المطروحة في هدا المقام هي :

_هل استطاع اللغوي العربي أن يتمثل الطرح اللساني تمثلا صحيحا؟
_هل استجابت البنية التحتية لأصول التفكير العربي ونتائج الدرس الغربي؟.

لن ننفي جهود نقادنا في إثراء حقل النقد العربي بمناهج لسانية كجهود عبد الملك مرتاض اللغوي الذي استطاع إلى حد بعيد الإلمام بأصول التحليل اللغوي في ضوء المقاربات البنيوية والسميائية مثل دراسته لقصيدة أين ليلاي لمحمد العيد محاولا تقديم دراسة سميائية تفكيكية تجسد بنية القصيدة تجسيدا علاماتيا دالا.وفي هدا المجال اتخذ عبد الملك مرتاض من اللغة موضوعا للألسنية واعتبرها أساس الدراسات اللسانية المعاصرة محاولا تجاوز المعطيات العلمية للألسنية والاستقلال بنظرية لسانية عربية.
وقد رفض عبد الملك مرتاض _في المؤتر نت المنعقد يوم25 يناير2004 ورغم جهوده الكثيفة_ القول بوجود نظرية نقدية عربية،وقال:لا توجد نظرية نقدية عربية،نحن جميعا من طنجة إلى البحرين عالة على النظرية النقدية الغربية المعاصرة20.كما انتقد

مرتاض النقاد العرب وطريقة تعليمهم للنقد الحديث مشيرا على أنهم جميعا يلوكون بألسنتهم المصطلحات الغربية.

تساعد المحاور اللغوية المطروحة سابقا في توضيح إشكالية الواقع النقدي الجزائري في خضم التراكمات اللغوية الحديثة التي أثقلت فكر الباحث العربي بصورة علنية .و مهما تعددت محاولات النقاد الجزائريين في التأسيس لنظرية نقدية جزائرية إلا أنها لم ترتق لتشكل كفاءة جماعية معتمدة في التأسيس النظري، فلا محاولاتي ولا محاولات القارئ الآخر ستثمر جهدا كافيا للابداع مالم تتظافر الجهود بشكل واع يتخذ سبيل التطبيق بصورة تثمر اتساقا على مستوى الأدلة التداولية المجسدة من خلال الخطابات بين نموذج أول ينمي منظور المتلقي ،ودلك انطلاقا من فضاء الجامعة التي يفترض أن تتبنى الفكرة بناء على مفهوم المشاركة الفاعلة والحضور البناء القائم بدوره على التحاور النصي .إضافة إلى الحضور المنهجي في ضوء متطلبات الدرس اللساني عند العرب.ومتى استطاع الباحث الجزائري أن يقمع روح الإتباع المنهجي سيوقع ولادة مفهوم جديد يكون بمثابة تحديد مباشر ودقيق لمصطلح الإبداع.فلا قياس دون نص ولا حكم دون علة جامعة بين أصل وفرع.

قائمة المصادر والمراجع

1- أنظر حسين خمري : بنية الخطاب الأدبي دراسة منشورات إتحاد الكتاب الجزائرية ص 5.
-2_وأنظر كذلك : فضاء المتخيل مقاربات في الرواية ط1 ، منشورات الاختلاف العالمية .2002 ص7.
3- أنظر : نظرية الأدب في القرن العشرين /قراءات أعدها وقدم لها ك.م.نيوتن (ترجمة عيسى علي العاكوب ط1 ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية و الاجتماعية1996 ص 21-25 .
3- المرجع نفسه ص 25-26 .
4- النص الأدبي من الظاهرتية إلى التفكيكية وليام راي /ترجمة يونيل يوسف عزيز ، ط1987 ص 17-21.
5- المرجع نفسه ص 25-30.
_وأنظر النقد والنظرية الأدبية مند سنة 1890 كريس بولديك / ترجمة خميسي بوفرارة ، منشورات مخبر الترجمة في الأدب و اللسانيات 2004.ص 09-20 .
6- النص الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية من 25-30
7- المرجع نفسه ص25_40
8_ النقد الجزائري المعاصر : من الأنسونية إلى الآنسية د/يوسف اوغليسي 2002 ص 39-43 .
9- المرجع السابق ص 73-133
10- المجلة الإلكترونية المؤتمر نت تصريح عبد الملك مرتاض : " جميع النقاد العرب يلوكون المصطلحات .
11_النقد الجزائري المعاصر من الانسونية إلى الالسنية،د.يوسف أوغليسي ص20.43
12_المرجع نفسه ص73_.133
13-بنية الخطاب الادبي دراسة:حسين خمري،ص7_40
14_المرجع نفسه

15_النقد الجزائري المعاصر،660_140
16-أنظر بنية الخطاب الادبي ص10_40وفضاءلمتخيل،حسين خمري
17-نظرية الادب في القرن العشرين،ص10-60
18-محاضرات مدارس لسانية،رؤى تطلعية ناقدة لجوانب لغوية عربية،بدرة فرخي.2006
19-فضاء المتخيل،حسين خمريص7-99

20- المجلة الإلكترونية المؤتمر نت تصريح عبد الملك مرتاض : " جميع النقاد العرب يلوكون المصطلحات.